خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في سورة يونس

د. سعد بن عبدالعزيز الدريهم(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة:

إِنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله؛ فَلا مُضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3][4].

أما بعد:

فبِعظم المتكلم يَعظُم الكلام، ولا أعظمَ من الله -- سبحانه – وتعالى-؛ لذا عظُم كتابه المنزل القرآن الكريم، وعظمت بعظمته وعظمة من تكلم به التَّالِي له والباحث فيه، ولا يزال الإنسان مُعظَّماً ما كان الكتاب العزيز قبلة له: قراءة، وتدبراً، وعملاً به، وتأليفاً فيه؛ لذا كانت وجهتي في أغلب أبحاثي وكُتُبي هذا الكتابُ العزيز؛ أبتغي القرب والشرف العظيم ممن تكلم به– سبحانه –، ولن يزال هذا دأبي ما حييت إن شاء الله؛ خاصة وأن الرفعة لمن كان كذلك جاء منصوصاً عليها في الأثر؛ فقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم –أن الخيرية ملازمة لمن تعلَّم القرآن وعلَّمه؛

(*) الأستاذ المشارك بكلية الملك خالد العسكرية.

وهل يزهد في مثل هذا الفضل أحد ؟ وهل ثمة من لا يحرك فيه هذا الفضل كوامن الحرص والإقبال ؟ لا أظن قلباً حياً يبتغي التميُّزَ والزلفى في الدنيا والآخرة إلاَّ ويجعل منه ذلك الحافز في مقدَّم الركب تعلماً وتعليماً، وسبحان ربي ما رأيت أحد جعل القرآن قائده وسائقه وهجيراه إلاَّ وكان السبقُ رائدَه، وهذا مصداق لقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: (إن الله ليرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين)، والتفت حولك، وأنعم النظر ستجد أن هناك من سيقت له الشهرة والقبول والصدارة دون مقدمات ازدلفها؛ فإذا فتشت لم تجد إلا الكتاب العزيز هو من رَفَعَ؛ فاللهَ نسألُ أن يجعلنا من أهل القرآن الذين أهله وخاصته.

وهنا أقول، ولا أقول ذلك رياء ولا سمعة وإنما تحدثاً بنعمة الله: إنه ومنذ بدأت حفظَ الكتاب العزيز أيام الطلب وفي بواكير العمر؛ كنتُ أحرص على الرجوع إلى كتب التفسير لكل آية يُشكِل عليَّ أمرُها، وكنت لا أكتفي بمرجع واحد بل ربما عدَّدت المراجع لبلوغ الارتواء وإزالة الإشكال، وهذا يمهد لسهولة الحفظ وقد كان، وقد مرت بي آيات وسور لولا ذلك ـ بعد تيسير الله ـ كانت الإحاطة بها ضرباً من الصعوبة، ومن ذلك (سورة يونس)؛ حيث عانيت بداية منها، ولعل مردَّ ذلك أنها كادت تكون حواراً مع المشركين؛ لإثبات القضايا الكبرى قضايا العقيدة؛ لذا هي تورد الحجج والبراهين، وتتدرج مع الخصوم في هذا السياق؛ ثم تلوي عليها بالقمع والنقض، وربما جُعِلَت المعاني البلاغية تكأةً لها، وما لاحظت أن النظم استعان في هذه السورة بشيء كاستعانته بخروج الكلام عن مقتضى الظاهر بأنواعه المختلفة: كوضع المضمر موضع المظهر والعكس، والالتفات، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي والعكس، والتغليب، وغير ذلك مما يلحق به؛ ربما لأن هذا الضرب من البلاغة يحقق لمن هو في مجال الكرِّ والفر جانباً من الفسحة، وهكذا السورة كما أسلفت كانت مجالاً واسعاً للحوار وإيراد الحجج بعد التدرج مع الخصوم في الإيرادات المختلفة، وكلها كما أسلفت تعنى بالقضايا الكبرى قضايا المعتقد، حيث

النجاة والهلاك والفوز والخسارة؛ لذا ستكون وقفاتي هنا في هذه البحث حول (خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في سورة يونس)، وهي كانت تعليقات رأيتُ جمعها وإخراجها مع التهذيب والزيادة وربما استبعدتُ مالم يكن سائغاً، وأزعم هنا أني قد استقصيت ما جاء في هذه السورة من قضايا هذه المسألة، وهي (خروج الكلام عن مقتضى الظاهر)، وسيكون تدرجي مع هذه القضية في هذا البحث مراعى فيه تسلسل الآيات في المصحف ما استطعت؛ لذا تتداخل هنا المعاني.

وقد جعلت هذه البحث في مقدمة، وتمهيد اشتمل على أمرين: التعريف بالسورة سورة يونس، وكذلك التعريف بخروج الكلام عن مقتضى الظاهر بأفرعه المختلفة، ثم تأتي بعد ذلك الدراسة لما ورد في السورة الكريمة سورة يونس من خروج للكلام عن مقتضى الظاهر؛ معالجة وبياناً لأوجه الإعجاز فيه.

وقد توخيت في هذا البحث السهولة إيراداً وأسلوباً، وآثرت أن أورد النص القرآني بخط المصحف العثماني، وكذلك تخريجها وتخريج الأحاديث النبوية وما أوردته من آيات؛ كما أن ردَّ الفضل إلى أهله منهج ألزمت به نفسي؛ لذا تجدني أعزو المقولات إلى أهلها والمصدر الذي وردت فيه، والله أسأل أن يوفقني وأن يلهمني الرشاد؛ إنه جواد كريم.

د. سعد بن عبدالعزيز الدريهم

الرياض

التَّمْهِيْدُ

أولاً: الحدِيثُ عَن سُورَةِ يُونُس:

سُمِّيت هذه السورة الكريمة في المصاحف وفي كتب السنة والتفسير بهذا الاسم سورة يونس؛ تمييزاً لها عن بقية السور الأربع التي بدئت بـ (ألر)، وكل سورة من هذه السور الأربع . لو تأملت . تلحظ أنها سميت باسم نبي من أنبياء الله أو قوم نبي، وقد انفردت هذه السورة الكريمة بذكر خصوصية لقوم يونس؛ لم تكن لأحد من قبلهم أو بعدهم أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب؛ فعفا الله عنهم لما آمنوا، حيث يقول– سبحانه–: (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُوْنُسَ لمَاَّ آمَنُوْا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِيْنٍ) (٥)، وتلك الخصوصية كرامة ليونس، ولعلك تلحظ أنه لم يذكر يونس؛ في هذه السورة إلا في هذه الآية.

وهذه السورة من السور المكية، وعدد آياتها مئة وتسع آيات، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور؛ حيث نزلت بعد سورة الإسراء في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية.

وهذه السورة الكريمة ابتدأت بمقصد إثبات رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم –بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن، وأتبع ذلك بإثبات رسالة محمد ث وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولاً بشراً، وانتقل بعد ذلك إلى إثبات انفراد الله – تعالى– بالإلهية بدلالة أنه خالق العالم ومدبره؛ فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته، وإلى إبطال معاذير المشركين بأن أصنامهم شفعاء عند الله، وأتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء؛ فذلك إبطال لأصول الشرك.

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيان حكمة الجزاء، وصفة الجزاء وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس، ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله، وبضد أولئك وعد الذين آمنوا؛ فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول؛ فمن ذلك التنبيه على أن إمهال الله– تعالى– الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه، ومن ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية

لما أشركوا وكذبوا الرسل، والاعتبار بما خلق الله للناس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر، وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها، وأن الآخرة هي دار القرار والسلام، واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرؤ الآلهة الباطلة من عبدتها، وإبطال إلهية غير الله– تعالى– بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وإثبات أن القرآن منزل من الله، وأن الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة، وتحدى المشركين بأن يأتوا بسورة مثله، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين، وإنذار المشركين بعواقب ما حل بالأمم التي كذبت بالرسل، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأن ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب، وتوبيخ المشركين على ما حرموه مما أحل الله من الرزق، وإثبات عموم العلم لله– تعالى–، وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – عما يقوله الكافرون، وأنه لو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم، ثم ترشد إلى الاعتبار بالرسل السابقين نوح؛ ورسل من بعده ثم موسى وهارون عليهما السلام، ثم استشهد على صدق رسالة محمد ث بشهادة أهل الكتاب.

وختمت السورة بتلقين الرسول – صلى الله عليه وسلم – مما يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأن اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها، وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه.

ثانيا: التعريف بخُرُوجُ الكَلاَمِ عَن مُقْتَضَى الظَّاهِر:

لو عرضنا كل ما قيل في البلاغة العربية؛ لوجدنا أن الفكرة الجوهرية في البلاغة العربية قائمة على مبدأ إيصال المعنى إلى المخاطبين، بحيث تراعي في ذلك أحوالهم العقلية والنفسية؛ فيجيء الكلام مطابقاً لتلك الأحوال، والبلاغة العربية قد استقرت على أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن لكل مقام مقالاً، ومجيء الكلام طبقاً لهذا هو أصل البلاغة وشرطها الذي لا بد منه، ولكن قد يأتي الكلام مخالفاً لمقتضى الظاهر، وهذا الأمر تقتضيه أسرار ونكات.

وينبغي أن نعلم أن هذه المخالفة إنما هي لظاهر الحال، فالكلام وإن خالف ما يقتضيه الظاهر؛ فإنه موافق لما يقتضيه المعنى، ويتطلبه المقام، ولا يظهر ذلك إلا لمن سبر أغوار المعاني، وتغلغل بفكره في أعماق التراكيب، فهو الذي يتجلى له ما وراء مخالفة الظاهر من أسرار ومزايا وأهداف يقصد إلى تحقيقها(٦).

ولهذا الخروج أساليب وصور مختلفة تحدث عنها البلاغيون. من أهمها: موضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والالتفات، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي والعكس، والسياق في الآيات الكريمات من (سورة يونس)؛ سيجلي لنا الكثير من هذه المعاني، وسيكون الوقوف على كل معنى من المعاني الخارجة عن ظاهرها وتجليته من خلال الآيات الأولى لوروده في هذه السورة المباركة.

وما أجمل أن ينطلق النص القرآني الكريم ! لتتبعه المعاني البلاغية لتجليه، وكم تكون الدراسة ذات عبق عندما تكون على سجيتها لا تركن إلى المبالغة وتحميل النص ما لا يحتمل، أو التقصير الذي يفوت على القارئ جزءاً من المتعة والفائدة، التي انطوى عليها النص وتجاهلها قلم الباحث، والخير كما أسلفت في الوسط بين هذه وتلك.

خُرُوجُ الكَّلاَمِ عَنْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ فِي سُوْرَةِ يُوْنُس

سورة يونس جاءت لتقرر الحقيقة المطلقة لمن أعرض عنها وتجاهلها؛ لذا فهي تتفنن في عرض الخطاب، وتعطي كلَّ موقف ما يناسبه من دلالة؛ فتارة يكون مباشراً، وتارة يكون بطريقة أخرى، وكلها لا تجري على نسق واحد في البلاغة؛ لأن البلاغة في معناها ومبناها قائمةٌ على مناسبة المقال للمقام، ولو ترك المعاند عناده لتسربت تلك المعاني إلى نفسه تسرب النسيم اللطيف؛ فأخذت بمجامع العقل والقلب منه، وكم أوبقت حظوظ النفس من مكابر حتى أوردته الحفر، ومن يضلل الله فلا هادي له.

فعندما تتأمل في قَوْل الحقِّ- سبحانه -: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ) (٧)؛ تجد أن الحق- سبحانه -

توجه إليهم بالخطاب مباشرة ؛ بينما كان السياق قبل ذلك على سبيل الغيبة كما في قوله- سبحانه - في الآية التي تسبقها: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الكَافِرُوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِيْنٌ) (٨)، وهذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لكسر الإنكار الذي ترسب في نفوس أولئك القوم؛ حتى إنهم وصفوا ما نُزِّل على النبي - صلى الله عليه وسلم -بالسحر، وجعلوا من النبي - صلى الله عليه وسلم -ساحراً، مع أنهم في قرارة أنفسهم يدركون صدقه وصدق ما جاء به، ولكنَّه الجحود كما أخبر الحق: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِيْ يَقُوْلُوْنَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُوْنَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِيْنَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُوْنَ) (٩)، وهؤلاء القوم المعاندون يحتاجون إلى جانب التَّفنن الخطابي المتمثل في الالتفات إلى برهان يعزه من قدرة الله؛ لذا كان استحضار الخلق لهذا العالم في هذا السياق، وكونه كان في مُدَّة وجيزة وهي ستة أيام من مثل أيام الدنيا(١٠)، ولاَ يزال الحقُّ- سبحانه - يرعى هذا الخلق، ولولا ذلك لفسد ولعلاه الخلل؛ لذا اصطفى هنا صيغة المضارع (يُدَبِّرُ) بدلاً من الماضي، والله- سبحانه - جلت قدرته هو المبدئ وهو المعيد، وإليه المنتهى، والخلق أجمعون إليه، والنَّظم في الآية وإن ذكر البداية وهو الخلق، وهو إليه- سبحانه - ألوى على النهاية ليغلق المشهد هنا بداية ونهاية؛ فذكر الشفاعة وهي مما يكون الآخرة، وأمرها إليه لا يفتات عليها إلا بإذنه- سبحانه -؛ حيث قال: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) ، والشفاعة من مظاهر القدرة والتمكن والقهر.

وختمت الآية بقوله- تعالى-: (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ)، وصُدِّرت باسم الإشارة لتمييزه أكمل التمييز؛ لأنهم امتروا في صفة الألوهية، وضلوا فيها ضلالاً مبينا؛ فكانوا أحرياء بالإيقاظ والتنبيه بطريق اسم الإشارة، وللتنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة(١١)، واصطفى النظم التَّذكُّر هنا دون التفكر (أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ)؛ لأن وحدانية الله متقررة في العقول والنفوس، وهي مما احتوته وآمنت به من قبل، وهو مما أخذه الله على البشرية من عهدٍ في الأزل. قال- تعالى-: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيْ آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوْا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُوْلُوْا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ) (١٢)، وإذا كان الأمر مما قد علم؛ فالتذكر هو المناسب لا التفكر.

وعندما نتقدم قليلاً في نظم السورة نلحظ أن ثمة خروجاً عن مقتضى الظاهر، وهو هنا من الإضمار إلى الإظهار، وذلك في قول الحق- سبحانه -: (إِنَّ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا وَرَضُوْا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوْا بِهَا وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُوْنَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ) (١٣)، فجملة (الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا)، هم الكفار الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة، وفي هذا إظهار بدلاً من الإضمار، الذي كان يكفي لتجلية شخوصهم؛ لكن كان الإظهار وبهذا الوصف وهو عدم الإيمان بالبعث بعد الموت والرجوع إلى الله؛ ليقرر أنهم حقيقون بالعذاب الذي تضمنته الآية، وهو دخول النار، وهو من كسبهم(١٤).

ونظيره قوله- تعالى-: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ) (١٥)؛ فبدلاً من أن يقول فنذرهم بالضمير عدل عنه إلى الاسم الظاهر وهو الموصول وصلته، فقال: (فَنَذَرُ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ)، وذلك لتعظيم أمر الطغيان وبيان نوعه، ولا ريب أن الإتيان بالاسم الموصول في تعريف الكافرين له أبلغ الدلالة على أن الطغيان أشده إنكارهم للبعث؛ فصار كالعلامة عليهم بدليل أن السورة حملت هذه الصفة أيضاً عند قول الحق -سبحانه وتعالى- فيها: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) (١٦)، وهنا المقام فيها للإضمار كذلك؛ لأنَّ هذه الصفة وهي عدم الإيمان بلقاء الله أمر اشتهر به الكفار؛ فكأنَّه أصبح عَلَماً عليهم، وقد يقع الإظهار موقع الإضمار لقصد التوبيخ والتهديد كما في قول الله- تعالى-: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيْعاً ثُمَّ نَقُوْلُ لِلَّذِيْنَ أَشْرَكُوْا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُوْنَ) (١٧)، وذُكروا هنا في جملة الصلة بهذا الوصف وهو الإشراك دون بقية أوصافهم؛ لأنه هو الذي أوبقَهم وأوجب لهم الخلود في النار؛ وإن كان ذلك لا ينفي عنهم بقية الأوصاف وأنهم مؤاخذون بها.

والوقوع في الشرك لو تأملنا نتاج التكذيب لما أنزل الله ولما أتت به رسله؛ لذا كان ظلماً يُورِث صاحبَه سوء العاقبة؛ لذا نلحظ أن السِّياق القرآني الكريم وضع المظهر (الظَّالِمِيْنَ) موضع المضمر في قوله- تعالى-: (بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيْلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِيْنَ) (١٨)، وكذلك لإيقاف من خلفهم أن التكذيب سببٌ فيما أصابهم من سوء المصير، وهو كذلك لاحِق بمن استن بسنتهم(١٩).

وقد يوضع المظهر موضع المضمر لزيادة التقرير والتمكين؛ كما في قول الحق- سبحانه -: (إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ)(٢٠)؛ فلو جرى الكلام على الظاهر؛ لكان (ولكنهم) بدلاً من (وَلَكِنَّ النَّاسَ)، وهذا كما أسلفت؛ لزيادة التعيين والتقرير، أي: لكنهم لعدم استعمالهم مشاعرهم في ما خلقت له، وإعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب (أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ) (٢١).

ومن المواضع التي انتظمت هذا المعنى قول الله- تعالى-: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُوْنَ) (٢٢)؛ حيث وضع المظهر وهو (الْمُجْرِمُوْنَ) بدلاً من الضمير؛ وذلك لتسجيل صفة الإجرام عليهم، وتحقيرهم وذمهم بهذه الصفة القبيحة؛ ولزيادة التنبيه على خطئهم في استعجال العذاب الذي يجرهم إلى عذاب الآخرة، وكان الأولى بهم لو كانوا عقلاء ألا يستعجلوا العذاب(٢٣).

ومن الآيات التي خرج فيها الكلام على خلاف مقتضى الظاهر قوله- تعالى-: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِيْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوْحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ) (٢٤) فالخطاب هنا غيبة بعد أن كان خطابا في قوله- تعالى-: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُوْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوْا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوْا لِيُؤْمِنُوْا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِيْنَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ) (٢٥)، وهذا التفات إعراضاً عنهم، وهو يستحقون ذلك؛ لأنهم بتصرفاتهم الحمقاء يسيئون لما خلقوا له واستخلفوا من أجله،

وهو عبادة الله، كما أن إمعانهم في الكفر بالرب والرسول وتكذيبهما يجعلهم جديرين بالتفات الخطاب عنهم، خاصةً إذا كان ذلك يتكرر وهو ديدنهم، وهو مستوحى من صيغة (تُتْلَى)، وقد قدم الظرف (إِذَا) على عامله (تُتْلَى)؛ لزيادة الاهتمام بذكر الوقت الذي تتلى فيه الآيات عليهم؛ مما يدل على وهن أحلامهم والعجب من كلامهم(٢٦)، وعندما ننعم النظر أكثر وأكثر نلحظ خروجاً آخر جادت به الآية الكريمة، وهو في قوله: (قَالَ الَّذِيْنَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا)، حيث وُضع المظهر موضع المضمر؛ تنبيهاً على أن هذا الوصف هو علة قولهم والحامل عليه(٢٧).

ولن تمضي بعيداً بين آيات سورة يونس حتى يصدفك الشاهد الأشهر للالتفات، وهو في قول الله –سبحانه وتعالى-: (هُوَ الَّذِيْ يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوْا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ) (٢٨)، حيث انتقل النظم من الخطاب إلى الغيبة في قوله: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ)، أي: بكم(٢٩)، ويرى الزمخشري رحمه الله أن الحكمة من الالتفات هنا هي المبالغة؛ كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار(٣٠)، ويذكر أبو حيان تعليلاً لطيفاً، حيث يرى أن قوله– تعالى-: (هُوَ الَّذِيْ يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) خطاب فيه امتنان، وإظهار نعمة للمخاطبين، والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل؛ فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكرت حاله آل الأمر في آخرها إلى أن المتلبس بها هو باغٍ في الأرض بغير الحق، عدل عن الخطاب إلى الغيبة، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي(٣١).

ويرى العلامة ابن عاشور– رحمه الله-: أن الآية الكريمة لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمير الخطاب الصالحة لجميع السامعين؛ فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة؛ لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين؛ فقال: (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُوْنَ فِي

الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ) (٣٢)؛ فإن هذا ليس من شيم المؤمنين؛ فتمخض ضمير الغيبة هذا للمشركين؛ فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلا على القرينة؛ لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.

وهذا الضرب من الالتفات لم ينبِّه عليه أهل المعاني، وهو كالتخصيص بطريق الرمز، وقد عدت هذه الآية من أمثلة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في ضمائر الغيبة كلها تبعاً للكشاف؛ بناء على جعل ضمائر الخطاب للمشركين، وجعل ضمائر الغيبة لهم أيضاً، وما نحوته أنا أليق.

وابتدئ الإتيان بضمير الغيبة من آخر ذكر النعمة عند قوله: (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ)؛ للتصريح بأن النعمة شملتهم، وللإشارة إلى أن مجيئ العاصفة فجأة في حال الفرح مراد منه ابتلاؤهم وتخويفهم، فهو تمهيد لقوله: (وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) (٣٣).

وهنا لفتة أخرى اشتملها السياق القرآني، وهو التعبير بالإفراد في لفظة (الريح) دون الجمع (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ)، ولعل ذلك مرده إلى أن الريح هنا للعذاب، وريح العذاب تأتي من مهب واحد، ولا يقوم لها ما يعارضها، حتى تنتهي إلى حيث أمرت بعكس رياح الرحمة فهي مختلفة المهاب والصفات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ الله ما يقابلها مما يكسر سورتها، ويصدم حدتها؛ فينشأ من بينها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، وعلى هذا النسق جاء نظم القرآن، حيث يقول– سبحانه – في غير هذه الآية الكريمة: (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحاً صَرْصَراً فِيْ يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِر) (٣٤)، ويقول: (مَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِيْ يَوْمٍ عَاصِفٍ) (٣٥)، ويقول عن رياح العذاب: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوْهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِيْنَ) (٣٦)، ولا يغيب عنا في هذا المقام قول النبي – صلى الله عليه وسلم –إذا هاجت الريح: (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً).

ومن صور الالتفات التي جاء بها النظم القرآني الكريم في سورة يونس الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين، قوله– تعالى–: (قَالُوْا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا

وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُوْنَ لَكُمَا الكِبْرِيَاء فِيْ الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ)[٣٧] ، ولعل توجيه الخطاب لموسى عليه السلام وحده بداية لقوته على بني إسرائيل؛ ولأنه أول من بعث، بل كانت النبوة لهارون عليه السلام بدعوة من موسى؛ لذا هو أعظم منة في الدنيا لأخ على أخية هي منة موسى على هارون إذ حُبي النبوة بسببه عليه السلام، ومن يتتبع قصص بني إسرائيل في القرآن يلحظ أن الذي كان يجالدهم ويأخذ على أيديهم ويخافونه هو موسى– عليه السلام–؛ لذا وجهوا الخطاب إليه، فقد أنكروا عليه هنا في بداية الآية الكريمة دعوته لهم إلى التوحيد، وأنه إنما جاءهم لكي يصرفهم عن دين الآباء والأجداد إلى دينه، ثم التفتوا من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين موسى وهارون– عليهما السلام–: (وَتَكُوْنَ لَكُمَا الكِبْرِيَاء فِيْ الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ)؛ لأن الكبرياء شامل لهما في زعمهم؛ ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون[٣٨].

وقد آثر النظم القرآني هنا لفظة (لِتَلْفِتَنَا) دون سواها؛ لأنها تدل على قوة التحول والعدول، كقوة تمسكهم بعبادة الأصنام بدلالة الحرف الذي يؤكد تمكن آبائهم وملازمتهم للأصنام، وكل أحوالهم التي كانوا متلبسين بها، وما يشعر به الفعل الماضي (وَجَدْنَا) من تعلق الأبناء بما ورثوه من الآباء ونشأتهم عليه؛ لذا كانت دعوة موسى عليه السلام باطلة وزائفة بالنسبة لهم، وترمي إلى مطامع ذاتية، جعلتهم يؤدون عدم إيمانهم بما جاء به موسى وهارون– عليهما السلام– بقولهم: (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ)؛ فجاءت الجملة اسمية وليست فعلية لإفادة الدوام والاستمرار في انتفاء إيمانهم بها، بل إنه أمر متمكن في أنفسهم أيما تمكن[٣٩].

ومن الالتفات: الالتفات من التثنية إلى الجمع، وذلك في قوله– تعالى–: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوْسَى وَأَخِيْهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوْتاً وَاجْعَلُوْا بُيُوْتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِيْنَ)[٤٠]، حيث تلحظ أن صدر الآية جاء الخطاب فيها بالتثنية لموسى وهارون عليهما السلام، وهما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعتهما، وإذا تبوآ البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير؛ فقال: (وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ)؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: (وَبَشِّرِ

المُؤْمِنِيْنَ)؛ لأن موسى؛ هو الأصل في الرسالة، فهو الأصل في البشارة، وأيضاً فإن موسى وأخاه- عليهما السلام- أرسلا برسالة واحدة؛ فكأنهما رسول واحد، وعلى هذا كان النظم في قوله- تعالى-: (إِنِّيْ رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِيْنَ) (٤١)، فهو الرسول الذي قيل له: (وَبَشِّرِ المُؤْمِنِيْنَ).

والتبوء: هو الإقامة والاستقرار، قال صاحب اللسان: بوأهم منزلاً: نزل بهم إلى سند جبل، وآبأت بالمكان: أقمت به، وبوأتك بيتاً: اتخذت لك بيتاً(٤٢) والأمر باتخاذ البيوت لعل المراد به: الانتقال من البيوت المؤقتة من خيام ونحها إلى البيوت الدائمة من المدر.

والتفت النظم القرآني لضمير الجمع عند قوله- تعالى-: (وَاجْعَلُوْا بُيُوْتَكُمْ قِبْلَةً)؛ لأن الحديث عن فريضة واجبة على الجميع وهي الصلاة من هنا جاء النظم بضمير الجمع (وَاجْعَلُوْا)، ومن أهم شروطها كما تعلمون استقبال القبلة، كما أن جعلها قبلة يجعلها هدفاً للشمس صيفاً وشتاء، وهذا فيه منافع لا تخفى.

والناس أثناء جلبتهم وحراكهم؛ خاصة وهم مطاردون من قبل العدو فرعون وجنودهم؛ ربما جعلهم ذاهلين وفي غفل عن صلاتهم؛ لذا جاء الذكر بتعيينها والنص عليها فقال: (وَأَقِيْمُوا الصَّلاَةَ)، وكان الضمير فيها جمعاً.

ونلحظ أن النظم القرآني الكريم عدل إلى الإفراد بعد الجمع؛ فقال: (وَبَشِّرِ المُؤْمِنِيْنَ)؛ لتلائم ما جاء قبلها من الأوامر، فكلها تدل على الخطر المحدق من حولهم وخشية من أذى فرعون وأتباعه عليهم؛ لذا جاءت الأوامر على الوجه التالي:

أولاً: باتخاذ مساكن أخرى قابلة للارتحال.

ثانياً: توجيه البيوت إلى القبلة لتكون صالحة للصلاة فيها.

ثالثاً: أن الصلاة في تلك البيوت لا في المساجد للاستتار لا للاختباء.

كل تلك الأوامر تجعلهم في حالة مشعرة بالترقب، فكان لا بد من بث الطمأنينة في نفوسهم ، وزرع الأمن في قلوبهم، ولن يكون ذلك إلا عن طريق سيدهم وقائدهم كليم الله على العدو المتربص فرعون.

وهذا النوع من الالتفات وهو الانتقال من التثنية إلى الجمع ثم العود إلى

الإفراد، أول من أشار إليه؛ هو جار الله الزمخشري- رحمه الله-[٤٣].

ووضع المظهر في هذه الآية في قوله: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ)؛ للإشعار أن مدار التبشير وسببه هو الإيمان لا شيء غيره؛ إذ هو الصلة بين الله وعباده[٤٤].

ومن صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في هذه السورة الكريمة المباركة التغليب، وهو بعبارة البلاغيين إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر؛ لجعله موافقاً له في الهيئة أو المادة [٤٥].

وهذا الفن من مخالفة السياق نراه في قوله- تعالى-: (أَلاَ إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرِصُوْنَ) [٤٦]، فهذه المخلوقات التي تعبد في هذا الكون إنما هي من خلق الله – سبحانه وتعالى-، ولا يستوي من يخلق بمن لا يخلق، وفي النظرة الأولى لمن له عقل ولب أن يرعوي عن عبادة هذه المخلوقات ومساواتها بمن خلقها- سبحانه -، ولكنها النظرة المعوجة والعقول النخرة التي غاب عنها الاتزان؛ فساوت بين العظيم- سبحانه – والحقير من خلقه في ألزم الأمور وهي العبادة؛ وعندما تغيب العقول ويرى الإنسان بمحض هذه العقول المختطفة زيناً ليس بالزين، فلا ريب أنه قلبه أشرب الفتنة وانغمس فيها قلبه؛ حتى صارت مسلمة؛ لذا نرى الله – سبحانه وتعالى- يخاطبهم في هذه الآية منطلقاً من هذا الأساس؛ مجاراة للخصم في المناظرة لإلزامهم بالحجة والبرهان؛ فقال: (أَلاَ إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ).

ويعلل البقاعي هذا التغليب؛ فيقول- رحمه الله-: (إن العزة لا تتم إلا بالقدرة؛ فأثبت اختصاصه بالملك الذي لا يكون إلا بها؛ فقال مؤكداً لما يستلزمه إشراكه من الإنكار لمضمون هذا الكلام: (أَلاَ إِنَّ للهِ)، أي: الذي له الإحاطة الكاملة، ولما كان بعض الناس قد أشركوا ببعض النجوم؛ جمع فقال معبراً بأداة العقلاء تصريحاً بما أفهمه التعبير سابقاً بأداة غيرهم: (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ)، أي: كلها، وابتدأ بها؛ لأن ملكها يدل على ملك الأرض بطريق الأولى، ثم صرح بها في قوله مؤكداً لما تقدم: (وَمَنْ فِي الأَرْضِ)، أي: كلُّهم عبيده ملوكهم ومن دونهم؛ نافذ فيهم تصريفه، منقادون لما يريده، وهو أيضاً تعليل لقوله: (وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ

للهِ جَمِيْعاً هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ) [٤٧]، أو للتفرد بالعزة، وعبر بـ(من) التي للعقلاء، والمراد كل ما في الكون؛ لأن السياق لنفي العزة عن غيره، والعقلاء بها أجدر؛ فنفيها عنهم نفي عن غيرهم بطريق أولى، ثم غلبوا لشرفهم على غيرهم[٤٨].

ولا يقف البقاعي عند هذا الحد– رحمه الله–، بل نجده يعلل لوجود (ما) في آية تسبقها، وأخرى تليها؛ فيقول: (ولذا تطلق (ما) التي هي لغيرهم في سياق هو بها أحق، ثم يراد بها العموم تغليباً للأكثر الذي لا يعقل على الأقل) [٤٩].

وهو يشير بذلك لقوله– تعالى– في سورة يونس: (أَلاَ إِنَّ للهِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ) [٥٠]، وقوله: (قَالُوْا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً– سبحانه – هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ) [٥١]؛ فعند التأمل تلحظ أن (ما) جاءت لتدل على غير العقلاء والعقلاء عن طريق التغليب بالأكثر؛ وهو لصالح غير العقلاء؛ فالآية الأولى قد وردت في قضية إثبات البعث والجزاء، التي ينكرها الكفار والمشركون؛ إلا أنها دليل على قدرة الحي القيوم– سبحانه – وتصرفه المطلق في الحياة والموت ثم البعث.

يقول البقاعي رحمه الله: (ثم بين غناه بقوله: (مَا فِي السَّمَاوَاتِ)، ولما كان سياق الاستدلال يقتضي التأكيد أعاد (ما)؛ فقال: (وَمَا فِي الأَرْضِ) من صامت وناطق، فهو غني بملك ذلك عن أن يكون شيء منه ولداً له؛ لأن الولد لا يملك، وعدم ملكه نقص منافٍ للغنى، ولعله عبر بـ(ما) لأن الغنى محط نظره الصامت مع شموله للناطق) [٥٢].

وبهذه اللطيفة أختم هذا البحث، والله أسأل أن يجعلني مباركاً وأن ينفعني، وينفع بي إنه جواد كريم.

الخاتمة والنتائج

مهما أفاض الإنسان في دراسة الآي الحكيم من الكتاب العزيز؛ لن يزداد إلا إقراراً بعجزه عن الإحاطة بأسرار الكتاب وما تضمنه من معانٍ، ولن تزال تلك القراءات وتلك الدراسات التي يمتع نفسه باستنباط تلك الدرر وتلك الطرائف منها

تسلمه إلى عجز، وهو يلتقط ويغترف تلك الدرر وتلك الفرائد كأنه في خضم بحر متلاطم لا ساحل له في مركب رث صغير، وهذا دأبنا ومن قبلنا مع الكتاب العزيز وآيته، كل يأتي ليؤدي مهمته ليمتح ما كتب له من لطائف وطرائف الكتاب العزيز؛ ليأتي من بعده ليكمل المهمة، وما زال هذا القرآن مكتنزاً بما يدهش.

وإنني ومن خلال هذا البحث الكريم في هذه السورة العظيمة سورة يونس، والتي تخيَّرت فيها الوقوف على خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وكم كان هذا المعنى اللطيف عاضداً للسياق القرآني في إدارة الحوار في هذه السورة، والذي يناقش التوجهات العقدية التي اختطها بعض البشر بعيداً عن رحبة العقيدة القرآنية الصافية؛ فاجتالتهم الشياطين؛ فكانوا في حزب الشيطان، وبئس والله سبيلاً.

عندما تنعم النظر وتتأمل تلحظ أن السياق القرآني نوع توجهاته في مخاتلة ذوي التوجهات الإلحادية المنحرفة، وتلك التي انتقص جناب التوحيد في نفوسهم؛ فتارة يستخدم الالتفات، وتارة باستخدام المظهر مكان المضمر والمضمر مكان المظهر والتغليب؛ لذا تترادف هذه المعاني وتنثال بين آي هذه السورة التي أخلصت للحديث عن العقيدة بركائزها وما يخل بها، ومآل تلك الأمم التي خالفت ما أمرت به، وعصت رسل ربها؛ حتى أورثها الخبال، لتلحق يوم القيامة بدار الأشرار، وكم بائس ظن أنه على شيء فإذا هو وقود النار؛ إنك وأنت تقرأ وتصافح الآيات بقلبك تتأوه من عظمة ما مر بك من عظمة الإعجاز والإيجاز وشدة الإفحام، وفي الدراسة لمن قرأها وعانقت عيناه بعض حروفها تجلية لشيء من ذلك، والله أسأل أن يجعل لهذه الدراسة قبولاً عنده، وأن ينفع بها من قرأها؛ إنه ربي– سبحانه – ذو النفع، والقبول منه– سبحانه –، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ.

٣. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، مصر.
٤. تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.
٥. خطبة الحاجة، محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٣٩٧ هـ.
٦. سنن أبي داود، تحقيق: عادل محمد، وعماد عباس، نشر: مركز البحوث بدار التأصيل، القاهرة، ط ١، ١٤٣٦ هـ
٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥ هـ _ ١٩٨٥م
٨. سنن ابن ماجه؛ للإمام أبي محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار التراث العربي، بيروت،١٣٩٥ هـ.
٩. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
١٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب.
١١. لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، دار صادر بيروت، ط ١، ١٤١٠.

١٢. مجاز القرآن، أبوعبيدة معمر بن المثنى، تحقيق / فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط / ٢، ١٤٠٢ هـ

١٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق: أحمد شاكر، أتمه د. الحسيني، عبدالمجيد هاشم، دار المعارف، مصر، ١٣٦٥ . ١٣٧٥ هـ.

١٤. من بلاغة النظم القرآني، د. بسيوني فيود، مطبعة الحسين، القاهرة، ط ١، ١٤١٣ هـ

١٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣ هـ _ ١٩٩٢ م

الهوامش

(١)آل عمران: ١٠٢.
(٢)النساء: ١.
(٣)الأحزاب: ٧٠، ٧١.
(٤)هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه.
انظر: خطبة الحاجة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي.
(٥)يونس: ٩٨.
(٦)من بلاغة النظم القرآني، د. بسيوني فيود، مطبعة الحسين، القاهرة، ط ١، ١٤١٣ هـ: ١٥٢.
(٧)يونس آية: ٣.
(٨)يونس آية: ٢.
(٩)الأنعام آية: ٣٣.
(١٠)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م: ١١ / ٦٤.
(١١)تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع: ١١ / ٨٨، ٨٩.
(١٢)الأعراف آية ١٧٢.
(١٣)يونس آية: ٧ - ٨.
(١٤)التحرير والتنوير: ١١ / ٩٩.
(١٥)يونس آية: ١١.
(١٦)يونس آية: ١٥.
(١٧)يونس آية: ٢٨.
(١٨)يونس آية: ٣٩.
(١٩)انظر: روح المعاني: ١١ / ١٢١ - ١٢٢.
(٢٠)يونس آية: ٤٤.
(٢١)انظر: تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٤ / ١٤٩.
(٢٢)يونس آية: ٥٠.
(٢٣)انظر: رح المعاني: ١١ / ١٣٣؛ التحرير والتنوير: ١١ / ١٩٣.
(٢٤)يونس آية: ١٥.
(٢٥)يونس آية: ١٣، ١٤.
(٢٦)انظر: التحرير والتنوير: ١١ / ١١٧.
(٢٧)انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م: ٣ / ٤٢٥.
(٢٨)يونس آية: ٢٢.
(٢٩)مجاز القرآن، أبوعبيدة معمر بن المثنى، تحقيق / فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط / ٢، ١٤٠٢

هـ: ١/ ١١.

(٣٠)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب.: ٢ / ٢٣١.

(٣١)البحر المحيط، أبوحيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ : ٥ / ١٤٢ .

(٣٢)يونس آية: ٢٣.

(٣٣)التحرير والتنوير: ١١ / ١٣٥ . ١٣٦ .

(٣٤)سورة القمر آية: ١٩ .

(٣٥)إبراهيم آية:١٨ .

(٣٦)الحجر آية: ٢٢ .

(٣٧)يونس آية: ٧٨ .

(٣٨)انظر: فتح القدير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام الشوكاني، دار المعرفة، بيروت: ٢ / ٤٦٥؛ تفسير أبي السعود: ٤ / ١٦٩؛ روح المعاني: ١١ / ١٦٥ . ١٦٦ .

(٣٩)التحرير والتنوير: ١١ / ٢٥٢.

(٤٠)يونس آية: ٨٧ .

(٤١)الأعراف آية: ١٠٤.

(٤٢)لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، دار صادر بيروت، ط ١، ١٤١٠: ١ / ٣٩ (بوأ).

(٤٣) انظر: الكشاف: ٢ / ٢٤٩.

(٤٤) انظر: تفسير أبي السعود: ٤ / ١٧١؛ روح المعاني: ١١ / ١٧٢.

(٤٥) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، مصر: ١ / ١٩١.

(٤٦) يونس آية: ٦٦.

(٤٧) يونس آية: ٦٥.

(٤٨) نظم الدرر: ٣ / ٤٦٢ . ٤٦٣.

(٤٩) نظم الدرر: ٣ / ٤٦٣.

(٥٠) يونس آية: ٥٥.

(٥١) يونس آية: ٦٨.

(٥٢) نظم الدرر: ٣ / ٤٦٤.